خطبة عيد الأضحى (٣)

الاستسلام لقضاء الله والتوكل عليه

الله أكبر الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر الله أكبر ولله الحمد.

عباد الله هذه هي السنة الثالثة بفضل الله نلتقي في هذا المكان نتدارس شرع الله بيننا في يوم عظيم هو يوم النحر، هو يوم في أعماق التاريخ الإنساني العظيم.

ما زلنا نقطف من ثمار قصة سيدنا إبراهيم الخليل وحياته المليئة بالبر والعظات فصدق الله القائل ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ ﴾[هود: ٧٥].

ففي الخطبة الأولى قطفنا من قصته أن المنحة بعد المحنة لما وجدناه في محن يصبر عليها وتأتيه المنح وفي الخطبة الثانية قطفنا ثمرة أخرى وهي لما وجدنا الانقياد والاستسلام لأمر الله تعالى لأنه علم أن ربه هو الله الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد قطفنا من هذه ثمرة التوحيد وصفاته.

أما هذه الخطبة فنسير في رياضها لنقطف زهرة أو ثمرة أخرى يانعة، انظروا عباد الله إلى حياة سيدنا إبراهيم لما كسر الأصنام ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا ﴾[الأنبياء: ٥٨]؛ وحكموا عليه بالموت في النار ﴿ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ ﴾[الأنبياء: ٦٨]؛ فأضرموا النار العظيمة وجمعوا حطبًا كبيرًا حتى أن السدي قال: (**حَتَّى إِنْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَمْرَضُ فَتَنْذُرُ إِنْ عُوفِيَتْ أَنْ تَحْمِلَ حَطَبًا لِحَرِيقِ إِبْرَاهِيمَ**)[1]، الشاهد أنهم جعلوا إبراهيم عليه السلام في كفه من المنجنيق وقذفوا به في النار، فلما قذف قال: (**حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**)[2]، الاستسلام لأوامر الله والتوكل على ربه العظيم القوي المتين الشديد سبحانه وتعالى فقال القدير

---

[1] تفسير ابن كثير رحمه الله.

[2] رواه البخاري رحمه الله.

للنار: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا﴾[الأنبياء: ٦٩].

وكذلك لما ترك ابنه وامرأته في صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء لأن الله أمره بذلك قالت امرأته: (**آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا، قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: إِذًا لَا يُضَيِّعُنَا**)[1]، استسلام وتوكل.

ولما أمر بذبح ابنه يشهد الله ويقول ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾ [الصافات: ١٠٣]، أسلما أي هو وابنه توكلًا وطاعة لله سبحانه وتعالى.

إذن نقول عباد الله الثمرة الثالثة هي الاستسلام لأوامر الله والتوكل عليه والثقة به والاعتماد عليه.

نريد عباد الله أن نتعلم هذا الدرس ونستفيد بهذه الثمرة، نتعلم أن الله سبحانه إذا أمر بأمر شرعي أو قدر أمرًا قدريا كونيا من بلاء وغيره أن نستسلم للأمر راضين شاكرين.

أمر بالصلاة نستسلم لأمره بأدائها.

أمر بالصيام نستسلم لأمره بأدائه.

أمر بالحج نستسلم لأمره بأدائه.

أمر بالتحري في القول والعمل والمال الحلال نستسلم لأمره بأداء ما أمر به سبحانه.

ولكن قد يقول قائل: كيف أستسلم للأمر وهو شاق علي كالعبادات أو شاق على نفسي كعدم استطاعته أن يكبح شهوته أو عدم استطاعته أن يكتفي بالمال الحلال لقلته؟ أقول: السبيل والسبيل الوحيد هو أن تتوكل على الله تعالى في أن يساعدك على هذا.

[1] رواه البخاري رحمه الله.

يقول ابن رجب رحمه الله: (**وحقيقةُ التوكُّلِ: هُوَ صِدْقُ اعْتِمَادِ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي اسْتِجْلَابِ الْمَصَالِحِ، وَدَفْعِ الْمَضَارِّ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كُلِّهَا**)[1].

يقول سهل رحمه الله: (**التَّوَكُّلُ الِاسْتِرْسَالُ مَعَ اللَّهِ مَعَ مَا يُرِيدُ**)[2].

ويقول أبو تراب النخشبي رحمه الله: (**هُوَ طَرْحُ الْبَدَنِ فِي الْعُبُودِيَّةِ، وَتَعَلُّقُ الْقَلْبِ بِالرُّبُوبِيَّةِ**)[3]؛ أي يقوم بالعبادة والاستسلام ويعلق قلبه بربوبية سبحانه فهو المدبر المقدر.

التوكل على الله أن تعيش بوجدانك وجسمك وقلبك وعقلك وحياتك مع قوله تعالى ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[الطلاق: ٣].

ويخطئ الكثير ويظن أنه متوكل على الله وهو ليس كذلك؛ لأنه مع التوكل لا بد أن تقوم بالعبادة وتتوكل على الله لقوله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[الفاتحة: ٥].

فمن لا يتوكل ولا يعبد مخطئ، ومن توكل ولم يعبد مخطئ، ومن يعبد ولا يتوكل مخطئ؛ لا بد أن يتوكل وأن يعبد.

إذن عباد الله من استسلم لأمر الله وتوكل عليه يجد هذه الفتوحات من رب البريات:

أولًا: السكينة

فأنت بالاستسلام لأوامر الله متوكلًا عليه في حصن حصين، هذه هي الحالة التي كان عليها سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو يلقى في النار، فقال: حسبي الله ونعم الوكيل، فاطمأن ورمى حمله على الله.

هي نفس الحالة التي كان عليها زوجة هاجر لما قالت إذن لن يضيعنا.

---

[1] جامع العلوم والحكم، لابن رجب رحمه الله.

[2] تفسير التستري رحمه الله.

[3] مدارج السالكين، لابن القيم رحمه الله.

هي نفس الحالة التي كان عليها سيدنا موسى عليه السلام لما طارده فرعون ﴿ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾[الشعراء: ٦١ – ٦٢].

ثبات وحسن توكل

هي نفس الحالة التي كان عليها رسولنا ﷺ لما قال له أبي بكر الصديق وهما في الغار: (**لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا، فَقَالَ: مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا**)[1].

ثانيًا: القوة الروحية النفسية

يقول عياض رحمه الله: (**شَهِدْتُ الْيَرْمُوكَ وَعَلَيْنَا خَمْسَةُ أُمَرَاءَ: أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَابْنُ حَسَنَةَ، وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، قَالَ: وَقَالَ عُمَرُ: إِذَا كَانَ قِتَالٌ فَعَلَيْكُمْ أَبُو عُبَيْدَةَ، قَالَ: فَكَتَبْنَا إِلَيْهِ أَنَّهُ قَدْ جَاشَ إِلَيْنَا الْمَوْتُ، وَاسْتَمْدَدْنَاهُ، قَالَ: فَكَتَبَ إِلَيْنَا أَنَّهُ قَدْ جَاءَ كِتَابُكُمْ تَسْتَمِدُّونِي، وَأَنِّي أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ هُوَ أَعَزُّ نَصْرًا وَأَحْضَرُ جُنْدًا فَاسْتَنْصَرُوهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كَانَ نُصِرَ يَوْمَ بَدْرٍ فِي أَقَلَّ مِنْ عَدَدِكُمْ، فَإِذَا أَتَاكُمْ كِتَابِي هَذَا فَقَاتِلُوهُمْ وَلَا تُرَاجِعُونِي، قَالَ: فَقَاتَلْنَاهُمْ فَهَزَمْنَاهُمْ وَقَتَلْنَاهُمْ فِي أَرْبَعَةِ فَرَاسِخَ قَالَ: وَأَصَبْنَا أَمْوَالًا**)[2].

ثالثًا: العزة

دخل ملك ملوك الدنيا هشام بن عبد الملك الكعبة فإذا بسالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم: (**يَا سَالِمُ! سَلْنِي حَاجَةً، فَقَالَ: إِنِّي أَسْتَحْيِي مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ أَسْأَلَ فِي بَيْتِ اللهِ غَيْرَ اللهِ، فَلَمَّا خَرَجَ خَرَجَ فِي إِثْرِهِ، فَقَالَ لَهُ: الْآنَ قَدْ خَرَجْتَ،**

[1] رواه البخاري ومسلم رحمهما الله، واللفظ للبخاري رحمه الله.

[2] مصنف ابن أبي شيبة رحمه الله.

فَسَلْنِي حَاجَةً؟ فَقَالَ لَهُ سَالِمٌ: مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا أَمْ مِنْ حَوَائِجِ الْآخِرَةِ؟ فَقَالَ: مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا، فَقَالَ لَهُ سَالِمٌ: أَمَا وَاللهِ مَا سَأَلْتُ الدُّنْيَا مَنْ يَمْلِكُهَا؛ فَكَيْفَ أَسْأَلُ الدُّنْيَا مَنْ لَا يَمْلِكُهَا؟)[1].

يقول رسول ﷺ: (**مَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِاللَّهِ فَيُوشِكُ اللَّهُ لَهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ)**[2].

يقول ابن القيم رحمه الله: (**الْجَاهِل يشكو الله إِلَى النَّاس وَهَذَا غَايَة الْجَهْل بالمشكو والمشكو إِلَيْهِ فَإِنَّهُ لَو عرف ربه لما شكاه وَلَو عرف النَّاس لما شكا إِلَيْهِم)**[3].

لا تخضعن لمخلوق على طمع ... فإنّ ذلك نقص منك في الدين

لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة ... إلا بإذن الذي سواك من طين

رابعًا: الرضا

وهي من أعظم الثمار، فإن من توكل على الله حق توكله واستسلم لأمره رضي بما يفعله وكيله فيستشعر الرضا ولو كان في بلاء.

خامسًا: الأمل

روي أن حاتم الأصم رحمه الله قال لأولاده: (**إني أريد الحج وكان أولاده بناتا فبكوا وقالوا إلى من تكلنا، وكانت له ابنة مباركة رزقها الله بنعمة التوكل والثقة في الله، قالت: دعوه يذهب فليس برازق، فخرج فباتوا جياعا، فجعلوا يوبخون هذه البنت، فقالت: اللهم لا تخجلني بينهم، فمر بهم أمير البلد وكان في رحلة صيد فاشتد به العطش فطلب منهم طعاما فلم يجد، فطلب ماء فناوله أهل حاتم كوزا جديدا وماء**

[1] المجالسة وجواهر العلم، لأبي بكر الدينوري رحمه الله.

[2] صححه الألباني رحمه الله.

[3] الفوائد، لابن القيم رحمه الله.

باردا فشربوا وأعجبوا بهذا الماء وكأنهم لم يشربوا ماء قبل ذلك، وكأن الله أودع سره المكنون فيه، فقال: دار من هذه؟ فقالوا: دار حاتم الأصم، فرمى لبناته صرة من ذهب، وقال لمن معه من أحبني فليصنع مثل ما صنعت، فرمى الجنود ما معهم من مال حتى امتلأ الإناء ذهبا فجعلت البنت تبكي، فقيل لها: ما يبكيك وقد اغتنينا؟ فقالت: لأن مخلوقا نظر إلينا فاغتنينا فكيف لو نظر الخالق إلينا)[1].

سادسًا: دخول الجنة بغير حساب

قال النبي ﷺ: (**يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، قَالُوا: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: هُمُ الَّذِينَ، لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**)[2].

عباد الله هذه هي الثمرة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ أن نستسلم لأوامر الله ونتحسسها متوكلين عليه سبحانه في أدائها، متوكلين عليه سبحانه ونحن نعلم أنه لا يستطيع أحد من البشر أن يرفع عنا ضر أو يأتينا بخير إلا بإذن الله تعالى.

فإن فهمنا هذا الدرس فتجد نفسك قد ارتفعت عن الذلة والنفاق والمهانة والجري وراء الآخرين لأن الله قال ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[الطلاق: ٣].

دعِ المقاديرَ تجري في أعنّتها ... ولا تَبِيتَنَّ إلا خاليَ البالِ

ما بين غمْضةِ عين وانتباهتِها ... يغيّر الله مِنْ حالٍ إلى حالِ

[1] القصة بسياق قريب من هذا في كتاب المستطرف في كل فن مستظرف، لشهاب الدين الأبشيهي رحمه الله.

[2] رواه البخاري ومسلم رحمهما الله، واللفظ لمسلم رحمه الله.